

قراءة أنثروبو - سيميائية لرمزية دم أضحية القرбан في ديوان سيدي بلال

خياط سليم

جامعة الجزائر

من أهم المحفزات التي استيقظت عليها رغبة المجازفة في العلم العام أنساق الاتصال عن طريق الإشارات و العلامات والرموز، تكمن في الاستماتة التي تظهر بها " وعدة سيدي بلال"، على أنها تشكّل نمط اتصال رسالتها مبنية كما تبنى النصوص، بالموازاة إلى البعد الدلالي الذي تحمله مركباتها في مجموعها. بحيث نلتصم في أسلوب تعبيراتها تلاقح الحركة بالكلمة التي تعيشها المجموعات السوداء المنحدرة من فئة العبيد كمجالات وفضاءات تصوّرة أو في اللا وعي.

كما أن اختيارنا لها يرجع لتمثيلها نسقا سيميائيا، خاصة دلالاته توريط زمن القران ضمنا على حمل معنى العلامة، و التي يعرفها Buysens أنها نوع من الإشارات غير لسانية المستعملة في سياق التخاطب والاتصال " المتعاقد عليها " أنها وسيلة يعرفها الطرف المستقبل بأنها كذلك، وأنها إشارة يستعملها المرسل إراديا لإبراز مقصد

عند المستقبل، إذ يتحقق الفعل المدركس المرتبط بحالة الوعي، مولدا عند الشاهد المغزى والغاية.¹

عكس الإشارة، تمثل العلامة، الفعل الذي من خلاله يحقق الفرد حدثا يفهم الآخر الغاية من سلوكه فيعيد تركيب ما أحدثه الأول .

فالعلامة تفك رموزها، وهي بذلك قابلة للتأويل الذي يتقاسمه ويشترك فيه كل المستقبلين الحاملين لرمز الاتصال، إلا أن شرط المعرفة والعلم بالرمز ليس سهلا كما ردّ على ذلك Prieto إلا إذا كان هناك تلقين اجتماعي حول الرمز في حدّ ذاته.²

هذا التطاول على الجانب المعرفي للرموز والوحدات الدالة في الخطابات التي لا يقصد بها الاتصال، هو ما يسميه Barthes بالدلالة التي تشكل بالنسبة إليه موضوع السيمياء.³

خارج هذه النظرية، نقودنا خطواتنا المحتشمة في هذا الميدان إلى اعتبار طقس ذبيحة الثور الأسود كنسق اتصال في سياق " وعدة الوصفان " يلعب دورا إزدواجيا، يجمع بين شكله الذي يقوم على مجموعة من المعتقدات ومضمونه التحتي الذي يشكّل لغة إيديولوجية.⁴ يجسد عنصر الدم سلطته كغاية رمزية ، تتحرّر على سيالانه شتى التصورات بما في ذلك القراءة التي تستخلصها المجموعات السوداء .

الثور كوسيلة التقاط للمرض :

يمثل الثور في المفهوم اللا ديني الصورة الخارجية لوعدة العبيد والوصفان، وبه تجهر بداية البدايات، بعدما تشتريه المجموعة السوداء المنظمة للحفل، إذ تختاره بحسب معطيات الضخامة وقوة الجسم، إضافة إلى لونه الاسود الحالك، الذي يكفي لوحده نقل دلالة المتشائمة وتركيبها على الحالة التصورية للسقوط في دياجير ثقافة اليأس ومدلول المرض الذي يعم بيئة الحفل الممتدة على قطر دائرة الجولة الراجلة التي يقطعها الحيوان رفقة مجموعة من الأفراد السود، لجمع تبرعات الأهالي و" الزيارات" التي تحمل في تسمية مغزاها، إضافة إلى ربطه باسم قوة خارقة، نداء الاستغاثة الممتسّر بغطاء قداسة الصدقة التي يقرها الفقه الشرعي، وبالتالي هي الكلمة الرسالة التي لا تظهر و لكن باطنها موجات تفوق معنى و فعل العطاء.

يزين الثور قبل الدخول في حلقة الديني بمجموعة من الأدوات أهمها مرآة دائرية الشكل محزومة بوسط جبينه، تقوم بدور التقاط الموجات التي تتبعث من فعل الزيارات، وتخزين شحنات وشظايا طلب الرعاية والحماية التي تنعكس على جسم الحيوان الضخم محولة قدرته المادية إلى قدرة الجسم المؤله الذي لا يصعب على يده الشفاء. فهي هنا تمثل إلى جانب رمزية الطهارة، أداة سحرية⁵ يختلف استعمالها باختلاف المناسبات *

كما توضع فوق مكان المرأة، كمية من "الحنة" إما في شكل دائري، وإما في صورة لخمسة أصابع (الخامسة)، وقليل منها في نهاية الذيل والقوائم، ويغطي ظهر الحيوان قطعة قماشية سوداء اللون مطرزة الجوانب بحبات "الودع" البيضاء. وبعنقه حزام جلدي مرصع بنفس المادة يتصل به حبل يستعمل لجبر الحيوان واتباع خطوات المجموعة في موكبها.

في هذا الظرف بالذات، الذي تطلق عليه المجموعات السوداء تسمية "الكريمة" دلالة عن جولة راجلة يقوم بها بعض الأفراد السود رفقة الثور الأسود عبر الأحياء والمدن المجاورة تحت وقع موسيقى الطبول وأزواج القرقابو لجمع الزيارات، يشترك دور الحيوان ليتحول من وسيلة إعلامية عن حلول موعد "الوعدة" بالنسبة للعائلات السوداء وغيرها، إلى جسم يمتص أنواع المرض وإساءات الخبث والأفعال الشريرة (كالنحس، العين، تأخر تزويج البنات، فقدان الذكور عند الإنجاب، العقم، السحر، ظواهر المس... الخ) التي تعيق بناء المشاريع الفردية أو الجماعية الميؤوس منها لفشل تكرارات تجربتها.

نتذكر جميعاً، الجو العام الذي كان يسود الأحياء حينما يصل موكب السود صحبة ثور أسود على أنغام غير معهودة، توقفهم إشارات النساء من على شرفات المنازل لرمي بعض النقود المحزومة وسط مناديل

تستعملها النساء لربط بطونهن في أوقات أداء أشغال البيت، والتي يعيدها الأطفال، بعد ما يقوم أحد المجموعة السوداء القائم على حمل موقد مشتعل تتبعث منه روائح البخور والجاوي، بتمثيل معتقد القدرة في مناديل النساء لتعود الحرارة إلى البطون فتصبح قابلة للتخصيب والحمل.

أو عندما يمر هذا الموكب، فيأخذ الطفل ثلث الآخر ليوضعوا فوق ظهر الحيوان، معتقدين في هذا الفعل التبادلي، نقل الإساءات والأمراض العالقة بالطفل إلى الحيوان، وتعويض ما خرج من الطفل بقوة الحيوان الدفاعية ولونه الأسود الذي يكون ذرعا واقيا لكل الجسم.

بالنظر إلى هذه السياقات الدلالية التي تترجم الأفعال اليومية للفرد، يبدو جليا أن محور العلاقة التي تربط بين المرسل والمستقبل غير كافية لتحليل المعنى، إذا ما لم تتدخل تصورات علاقته بالكون التي توسع من حقل الاقتراب السيميائي.

دم ذبيحة الثور: إشارة الإشارة.

بعد عودة الموكب الراجل واستراحة الحيوان بجانب "المحلة" أو الزاوية التي تدوم يومين أو ثلاثة، مقدار توزيع الهبات وإسهامات الأفراد التي تم جمعها لتحضير شروط الممارسة الدينية على العائلات السوداء المشاركة في تنظيم "الوعدة"، تبدأ زمانية طقوس اعتلاء الثور فضاء

المقدس، والتي تعتبر بداية تضمين العلامة بالمركبات
البنائية للمدلول الذي تتوحد عليه الذاكرة السوداء.
يقوم "الشاوش" بتقديم ثلاث جرعات من الحليب للثور، تساعده
في ذلك "العريفة" والذباح، إضافة إلى متطوعين من السود لمسك
الحيوان. ثم يأتي بالموقد الذي يشتعل به نوع من "الجاوي"، فيمرره على
طول الحيوان إلى غاية ذيله، ثم عرضاً من تحت بطنه. ليعيد رسم
نفس الحركات بواسطة "الحنة".

و تتم هذه العمليات ليلاً، وتسبق ظرف ذبيحة الثور بيوم
واحد، تطلق عليها تسمية "ليلة التبيات"، للدلالة عن زمن
تحويل دياكروني، أو تجهيز الحيوان لاستقبال
الشخصية الرمزية التي ستزل ليمثلها في
جسمه. بحيث تتجاوز أهميتها كطقس الغرض
التطهيري، لتشمل عمليات بناء المعنى الدلالي من خلال
تركيب العلاقات الخفية بين الحيوانات والقوى المرغوبة التي
تستخدمها "العريفة" في مرحلة التطبيب السحرية التي تقام
بعيدا عن الأنظار. إذ تحضر أزواج الطيور الدواجن الملونة،
باستعمال الحنة وتلطixها على ريش أجنتها وقوائمها. ثم ترفع كل
زوج منها على حدى فوق البخور، لتنتهي بتعطير أركان وزوايا
المكان.

في الوقت الذي تخرج فيه الرايات أي "العلامات" التي تعني توزيع المؤسسة الدينية السوداء جغرافيا، أكثر مما تعني رمز إثنيّات إفريقية، الذي سقط في غياهب النسيان إذا ما تكلمنا عن الأصل. تجتمع مجموعة ذكورية على معزوفات سودانية الأداء والكلمات، للتعبير فنيا عن ظهور وبروز العلامة التي يجسدها الثور كإشارة للجسم المؤله. فيتقدم "المقدم" صاحب المحلة المنظمة للحفل، وسط الدائرة المكونة من أفراد العائلات السوداء ورؤساء محلات المدن الأخرى، وغيرهم من الحاضرين، بذكر بعض الأدعية، والتي لا تمثل أداة اتصال فحسب، بل أيضا البديل اللساني الذي تتضاعف بموجبه تغيّرات السلوكات، وهي تحني أمام سلطة الكلمة. بعدها يتقدم "الذباح" ليتسلم من "المقدم" السكينة مبتدئا صيغة وشكل النداء أو لا بذبح الطيور الدواجن التي تمثل شكليا "المعنى السطحي" لتعليمات الشفاء. أما ضمنا وخارج الزمن، فتتمثل تمهيدا لإشارة الإشارة، تنسج حول الدم قرابة بين نوعي القربان (الدواجن، الثور) لبلورة المدلول. إذ يتقمص دم الدواجن أسماء قوى رمزية تنحدر من نفس السلسلة العائلية التي يتوجّه إليها القربان، موفقة بذلك تصوريا بين الرمز الاجتماعي (code social) الذي يرمي إلى استتباب التوازنات والتخفيف من حدة الأمراض وبين الرمز المخلّد (code commémoratif) الذي تنوب فيه الضحية عن الجماعة.

وبقبضة واحدة يُطرح الثور أرضاً قاطعاً الذبّاح عنقه، ليتحرّر عندئذ المحتوى الدلالي للرمز المخدوع والمنتج للفصل المميّز بين المجموعات السوداء وبقية الحاضرين، بحيث يتخذ الدم مكانة متقدمة على الثور كعلامة وكضحية قربان، متصدراً بمورفولوجيته التي تثير نفس قواعد المنع والمخاوف التي يحترز ويحسب لها، مراحل ومراتب عوامل فناء الحيوان.

إذ يفرغ جسم هذا الأخير من قِداسته "الحقيقية"، ليصبح مجرد أداة خدعة، وقناعاً حيوانياً في لعبة الاتصال والوساطة بين الأفراد والقوى ألما ورائية، خصوصاً وأنه لا توجد ظواهر سيميائية متعلقة بلحمه. هذا التَنكّر الوظيفي الذي يقفز فيه الحيوان من جسم مصوّر إلى وعاء يحتفظ بداخله المعنى والمرجع، هو في الحقيقة خطوة نوعية ضرورية ولازمة. تنقلب في أثنائها قاعدة الصمت الظاهري الذي يميّز الحالة الجماعية أثناء الذبيحة، إلى انفعال إيجابي اتجاه الدم الذي يعني في هذا المقام، إشارة بالمعنى السيميائي للقدرة ودلالة عن عودة الأسطورة في شخصية "بابا مرزوق" الذي يرتدي صفة الأب المؤسس والمرجع الذي يضمن خارج الزمن تلاحم وتوحيد الجماعات السوداء، التي تلتف حوله على اختلاف "راياتها" في حلقة دائرية.

يتقدم عدد قليل من النساء أمام بحيرة الدم ليرقصن بنشوة على المقطع الغنائي الذي تنزل على أساسه شخصية بابا مرزوق، بعضهن تمسحه على مستوى بطنها والبعض الآخر يقطع رقصته ليرسم بالدم خطين متوازيين على جبهة الأطفال، خلف الأذنين وعلى مستوى الأقدام... أما "العريفة" المرأة السوداء المعروفة بمكانتها كشخص به مس "مسكونة"، والتي تشرف على عمليات التداوي السحرية إن صح القول، فتعرف قرب عنق الحيوان كوبا من الدم، إما لشربه أو لمعالجة الأمراض النسوية.

في هذه الحالة، يصبح للدم معنا سيميائيا⁶، يحدده بعده كطقس انتقالي وتطغى عليه معايير التوازن الاجتماعي والثقافي. يستغل فيه مفهوم القدرة لاسترجاع جنسانيا الية الإنجاب، أو حماية الأطفال من القوى الباطنية، وحملة يستحسنها النساء والرجال من الخلف ضد مختلف أشكال التطير.

أما بالمعنى الدلالي، فقد يعني تدفق الدم بداية النشاط المرجعي في شكل مراقبة للإشارات الجزئية التي تنبثق عن الحيوان الضحية. بحيث تصنع تراكماتها المؤولة الصورة الشبحية للجد المؤسس الممثل في شخصية "بابا مرزوق" مذكيا هذه التجربة المريرة في أدائها والسعيدة في نهاياتها لكونها تترجم في فعل الذبيحة فعل التلطف باسم البديل الكرونولوجي المحبوب من وراء الرمز، ومن ثمة فعل

تسمية الذات الجماعية والإنسية المختصرة ماديا أو التي يبدو تاريخها منسيا.

فالدّم في هذا السياق هو بمثابة عودة الأسطور في صيغتها الفعالة على مستوى البنى الذهنية للجماعات السوداء، وعلى هذا النحو فهو يمثل الإشارة التي بفعليها تدفع المجموعات إلى الغوص في زمن الأسلاف قياسا بأقرب الأجيال، ولا تتنافى والمدلول الاستمراري الذي ينتج عن ذبيحة الثور الأسود. إذ بموت الحيوان تضع المجموعات حدًا لأشكال التجسّس الجسدية، مما يسمح لها دخول فضاء الحفل متطهرة، وملتزمة تحيين ذاتها انطلاقا من البنى العميقة للمعنى الذي يحمله الدّم كإشارة بلاغية.

المراجع :

Chevalier.J. & Gheerbrant.A. : Dictionnaire des symboles .
Ed, Robert

Laffont. Paris, 1982

Greimas A.J : Du sens . Essais sémiotiques. Ed, Seuil .
Paris . 1970

Mounin Georges : Introduction à la sémiologie . Ed,
Minuit . Paris . 1970

Reboul Olivier : Langage et idéologie . Ed, PUF . Paris .
1980

¹ حسب تعريف Buyssens المستخلص من كتاب Mounin Georges :
Introduction à la sémiologie . Ed, Minuit . Paris . 1970 .p 14

² Mounin Georges : Ibid . P 15.

³ Mounin Georges : Ibid . P 12 .

⁴ Reboul Olivier : Langage et idéologie . Ed, PUF . Paris . 1980 . P 141 .

⁵ Chevalier.J. & Gheerbrant.A. : Dictionnaire des symboles . Ed, Robert
Laffont. Paris, 1982 .P636

" تستعمل المرأة في مناسبات الزواج على طريقة " عرف سيدي معمر " خلف العروس مباشرة
وإلى جانبيها امرأتان تمسك كل واحدة منهما شمعة طويلة ومشتعلة . أما في زمن " القرح " ،
ولمجرد وصول نبئ موت فرد من العائلة ، تغطى المراياك وكل ما يشبهها ، بما في
ذلك التلفاز .

⁶ Greimas A.J : Du sens . Essais sémiotiques. Ed, Seuil . Paris . 1970 . P . 7.